بورت آرثر والحرب الحاضرة

لقد كان من رأي المتحزبين للروس ان بورت ارثر امنع من ان تفتح كما ترى في ما كتبهُ واحد منهم في الجزء الاول من اجزاء هذه السنة . وكان من رأي غيرهم انها تفتح ولكن الحرب لا تنتهي بفتحها كما ابنا غير مرة . وقد قال الواصفون لقلاعها وحصونها انها امنع من عقاب الجوّ واعزّ من الابلق الفرد واقوى ما بنتهُ يد انسان . ولا عجب فان الحكومة الروسية قضت في تحصينها نحو ثماني سنوات وانفقت عليها وعلى بناء دالني نحو ٥٠ مليوناً من الجنيهات حتى صارت تحسب امنع حصون الطبيعة الاولى وحتى قال بعضهم انها كانت تساوي ستًّا من قلعة سفستبول المشهورة ومع ذلك تمكن اليابانيون من فتحها في غرة هذا العام

ولا حاجة بنا الى الاطالة في وصف حصارها فقد قاتل الفريقان قتال الابطال وخسرا خسارة عظيمة ولكن خسارة اليابانيين كانت اعظم لانهم الفريق المهاجم . وقد ظهر بعد تسليمها ان المؤونة والذخيرة لم تكونا تنقصها ولكن لا يلزم عن ذلك ان حاميتها لم تكن تقاسي الاهوال الصعاب قبل التسليم فان كثرة المرضى والجرحى في المستشفيات وقلة الماء والمدافع الكبيرة وما نتج من اطلاق اليابانيين لمدافعهم من التخريب والتدمير دلّ على ان الروس كانوا في مثل حشرجة الموت بجانب تسليمهم حافظاً للرمق الذي كان يتردد في صدورهم

وينتقد البعض على الجنرال ستوسل تسليمهُ مدعين ان بورت آرثر كانت تقوى على الثبات والمقاومة الى ان يأتيها الفرج عن يد اسطول البلطيك ويقول غيرهم ان استيلاء اليابانيين على الحصون المحيطة بها الواحد بعد الآخر ولا سيما الحصن المسمى حصن ٢٠٣ امتار قرّبهم منها بحيث بات الروس تحت رحمة مدافعهم فلم يرَ الجنرال ستوسل اذ ذاك مفرًّا من التسليم حقنًا للدماء وضنًّا بالارواح ان تزهق على غير جدوى

ولا ريب ان انتصار اليابانيين كان باهرًا بدليل عدد الاسرى ومقدار الاسلاب فقد قيل ان عدد الجنود الروسية التي سلمت ٢٨٠٠٠ وعدد ضباطها ٨٧٨ وكان في المستشفيات ١٤٠٠٠ . ويقال ان الذين قتلوا من الحامية مدة الحصار بلغوا ١٠ آلاف . اما الاسلاب والغنائم فكانت ٥٤٦ مدفعاً و٣٥ الف بندقية ومقدارًا كبيرًا من الذخيرة واربع بوارج ما عدا البارجة سفستبول التي اغرقت وطرادين و١٤ مدفعية ونسافة . واستولى اليابانيون على ٥٩ حصنًا وقلعة منيعة . وهكذا عادت بورت آرث الى اليابانيين عنوة بعد ان اغتصبت منهم سياسة

اثر حربهم مع الصين حينما تألبت روسيا والمانيا وفرنسا واكرهتهم على تسليمها الى الروس وقد اختلف المقدّرون في عدد مَن قتل وجرح من اليابانيين قبلما تمكنوا من فتح بورت آرثر والمرجح انهم لا يقلون عن مئة الف

والصفحة البيضاء في قصة هذا الحصار السوداء ما ابدى اليابانيون من كرم الاخلاق في معاملة الحامية عند وضع شروط التسليم ممّا دلّ على انهم ليسوا كما يصفهم بعض الكتّاب الاوربيين من انهم كالمتوحشين او ارقى درجة

ولا بكر ان لاستيلاء اليابانيين على بورت آرثر شأنًا عظيمًا في مجرى الحرب . فان القيصر ومشيريه عدّوه سببًا لمضاعفة قوتهم وتجديد اقسامهم ألاّ يعيدوا السيف الى غمده حتى ينتصروا على عدوهم انتصارًا باهرًا . وذلك امرٌ طبيعيٌّ يشعر به المغلوب على اثر الانقلاب على ان اهم الامور في هذه الحرب فقدان روسيا زمام البحر نعم ان اسطول البلطيك لا يزال يخر في عباب الاوقيانوس ولا يبعد ان يصل اخيرًا الى ساحة القتال ولكن الخبيرين لا يعدونهُ كفئًا لاسطول اليابان في ميدان النزال فان كان لروسيا امل باستقامة الحال وافول نجم النحس فانما يكون ذلك على ضفاف نهر شاهو حيث الجيشان نازلان ولكن لا يظهر ان الحال هناك على ما تحبُّ روسيا لان الجيشين تحصّنا اشد التحصّن فاذا هاجم الروس اليابانيين كما هو المنتظر فيبعد عن الظن انهم يزيحونهم من مواقعهم المنيعة لا سيما وان الروس لم يستطيعوا الثبات في لياونج حيث كانت حصونهم واستحكاماتهم عزيزة وكان اليابانيون المهاجمين وكانوا هم المدافعين فكيف اذا انعكست الحال فصاروا هم المهاجمين واليابانيون المدافعين . ثم ان استئثار اليابان بزمام البحر يمكنها من ارسال النجدات الى جنودها اين شاءت ومتى ارادت على اهون سبيل على حين انهُ ليس عند الروس سوى خط حديدي مفرد لارسال النجدات . فموقف روسيا احرج مما يظنّ وآمالها ابعد من ان تحقق بسهولة الاّ اذا قام من رجالها مَن يحلّ العقدة بسيف الاسكندر ويزيح من عاتقها الحمل الذي كادت تنوء به ولكن الدلائل الحاضرة لا تدلّ على ان الزمان يذخر لها مثل ذلك الرجل في خزائنهِ

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر بعض الشيء عن بطلي بورت آرثر الجنرال نوجي قائد الجيش الياباني والجنرال ستوسل قائد الجيش الروسي فنقول :

لما انتدب الجنرال نوجي لقيادة الفيلق الياباني الذي حاصر بورت آرثر قال ان قيادة ذلك الفيلق اعظم شرف يحلم به جنديٌّ من جنود الامبراطور . وفي ذلك اليوم نفسهِ نعي اليهِ ابنهُ الاكبر فلم يخفض نعيهُ من افتخاره بشرف المهمة التي انتدب لها وهي ان يعيد الى امتهِ ذلك

الحصن المنيع الذي فقدتهُ بحكم السياسة لا بحكم الغلبة

وقد وصفهُ بعض عارفيهِ فقال : يقولون ان الجنرال نوجي يجهل آداب المعاشرة الحديثة وهذا صحيح ولكن لا عار عليهِ منهُ ولا شنار فانهُ من شيوخ القرن التاسع عشر فلا غرابة اذا جهل ما احدثهُ شبانهُ في هذا الباب . اذا قابلتهُ ادهشك ما تراهُ عليهِ من بساطة الجندي كأنهُ لم يتعلم شيئًا غير فن الحرب . وهو حرُّ الفكر والكلام ليس على شيءٍ من التملق وذلق اللسان ولهُ ثلاث فضائل جوهرية . الاولى سذاجتهُ . والثانية حرصهُ على النظام . والثالثة بشاشتهُ لجميع الناس . وهذه الصفات الثلاث يتصف بها كل رجل عظيم . ومع شدة حرصهِ على النظام تراهُ كثير المزاح في الكلام يقول نكتة فيقهقه لها جيش برمتهِ

وهو باسل شجاع وقد تركتهُ الحرب بلا عقب فقد قتل ابنهُ البكر في كنشاو والثاني في حصار بورت آرثر وليس لهُ غيرهما . يحكى انهُ كان جالسًا في مكتبهِ يوم سفر ابنهِ البكر الى ساحة القتال فجاءهُ وهو يقول " اودعك الآن يا ابتاه فاني مسافرٌ الى منشوريا ولا امل لي البتة بالعودة اليك حيًّا وسأصلي دائمًا طالبًا لوالدتي الصحة والعافية فاذا قتلت في الحرب فلا تبخل يا ابتِ بكلمة او كلتين تقولها في رثائي ولابدَّ ان تكون حينئذٍ في طريقك الى ساحة القتال فاسمح لي ان اقول وان كنَّا نقاتل في جيشين تفصل بينهما المسافات الشاسعة فمن الواجب علينا كلينا ان نحاضر معًا ونحارب يدًا واحدة في سبيل وطننا "

وكان ابنهُ الاصغر قد دخل الغرفة اذ ذاك وسمع ما يقولهُ اخوهُ فقال " ألا تسمح لي يا اخي ان اجري معكما في المضمار الذي عزمتما على الجري فيهِ . وسنرى لمن السبق منَّا " فضحك ابوهما وقال " حسنًا يا ابنيَّ فان هذا المضمار يهمنا كلَّنا "

اما الجنرال ستوسل فكان رجال حاميتهِ يحبونهُ حبًّا يقرب من العبادة وهو كبير الجسم اشقر الشعر لطيف المعشر انيس المحضر . صوتهُ رخيم يناقض هيئتهُ لا يكلُّ من العمل ولا يملُّ . ولما انتهى تسليم بورت آرثر وعُلم ما كان فيها من الجنود والميرة قام اناس من الذين كانوا يطنبون بمدحهِ وقالوا ان تسليمها عار على الحامية الروسية لانهُ كان في طوقها المقاومة الى ان تأتيها النجدات وان زادها وذخيرتها كثيرة

وفي الرابع عشر من الشهر الماضي وصل الجنرال ستوسل ومن معهُ الى السويس في طريقهم الى روسيا فقابلهُ وكيل المقطم فيها وكتب في ذلك رسالة نشرها المقطم في حينها نقتطف منها ما يأتي . قال الوكيل

" علمت من الجنرال ستوسل ان حامية بورت آرثر لم تكفَّ عن القتال الاَّ لما اقتنع بان

الثبات اضحى ضرباً من المحال . فقد كان عدد الحامية في اول الحصار ٣٤ الفاً بين ضباط وعساكر بحرية وبحرية وهؤلاء لم يبقَ منهم يوم التسليم غير ثمانية آلاف عسكري ثلثة آلاف منهم اصيبوا بداء الاسكربوط او غيره . وكان عندهم ثمانية عشر الفاً بين جريح وطريح على فراش المرض والسقام والباقون قتلوا او ماتوا . ونفدت الادوية والعقاقير والرباطات ولم يبقَ في الصيدليات الاَّ بعض المراهم ولم تبقَ محلات تسع الجرحى ولا ممرضات يمرضنهم . وقضى الجنرال اثنين واربعين يوماً لم ينزع فيها حذاءهُ من رجليهِ

"ونفد الزاد والمؤونة ايضاً فلم يبقَ عند الحامية من الارز والدقيق الاَّ مؤونة اربعة ايام فقط لان الغام اليابانيين اتلفت معظمها وفرغ لحم الضان والبقر فجعلوا يأكلون لحم الخيل مدة ثلثة اشهر ولما سلموا لم يكن باقياً عندهم من الخيل غير القليل

"وكذلك الذخيرة نفدت فلم يبقَ منها عند التسليم الاَّ القليل . فلما رأى الجنرال ذلك كلهُ ورأى اليابانيين قد فتحوا حصن ارلنج شان بعد ما دمروا البوارج عقد مجلساً من قواد الحامية فقرَّ قرارهم على التسليم فسلموا . وقد قال رئيس اركان حرب الجنرال نوجي للجنرال ستوسل اننا فقدنا على بورت ارثر ٩٨ الف مقاتل بين ضباط وعساكر

" وقال لي احد الضباط المرافقين لهُ ان اليابانيين فقدوا ١٧ سفينة حربية بين كبيرة وصغيرة امام بورت آرثر وانهُ فقد منهم في معركة من المعارك ١٣ الفاً في ساعة واحدة

" اما من جهة طول مدة الحرب ونتيجتها فراي الجنرال انها تطول سنتين او اكثر وان النصر يكون لروسيا في الآخر" انتهى

اما كيفية استيلاء اليابانيين على بورت آرثر فقد فصلتها جريدة السينتفك اميركان تفصيلاً دقيقاً قالت :

يحيط ببورت آرثر سلسلتان من التلال على شكل دائرتين الواحدة داخل الاخرى . فبنى المهندسون الحصون والقلاع على رؤوس هذه التلال ووصلوا ابنيتها بالمعاقل والاستحكامات . والحصون والقلاع الداخلية تسمَّى بالدائمة وعليها المعوَّل في الدفاع ومتوسط بعدها عن بورت آرثر ميل واحد اما الحصون والقلاع الخارجية فمتوسط بعدها ميل ونصف وهي اقلُّ منعة من الداخلية وخلفها استحكامات اخرى . وقد عني الروس باختيار مواقع الحصون بحيث اذا استولى العدوّ على حصن منها لم يستطع البقاء فيهِ لان الحصون القريبة تشرف عليهِ

وجوانب التلال ملساء جرداء لا يجد مهاجمها ما يحجبهُ عن حصونها ويقيهِ نيرانها الحامية . والاستحكامات ومعدات الدفاع ممتدة الى مسافة ١٨ ميلاً من بورت آرثر شمالاً حيث يضيق

شبه جزيرة بورت آرثر حتى يصير عرضهُ ٣ اميال

ولا حاجة بنا الآن الى وصف هجوم اليابانيين على الاستحكامات والحصون البعيدة واخذها عنوة الواحد بعد الآخر في الصيف الماضي وانما نقول انهم لما رأوا في اول سبتمبر الماضي ان الحصون والقلاع الداخلية لا تؤخذ بالهجوم عنوة كما اخذت الاستحكامات الخارجية عزموا على فتحها بواسطة اخرى وهي اولاً اطلاق مدافع الحصار الضخمة لهزّ اساسات الحصون وثانياً نسف الاستحكامات التي بنيت حولها ليستذري الجنود بها و يطلقوا النار من خلفها بالغام تحفر تحت الارض . وثالثاً الهجوم على الحصون من خنادق مستترة

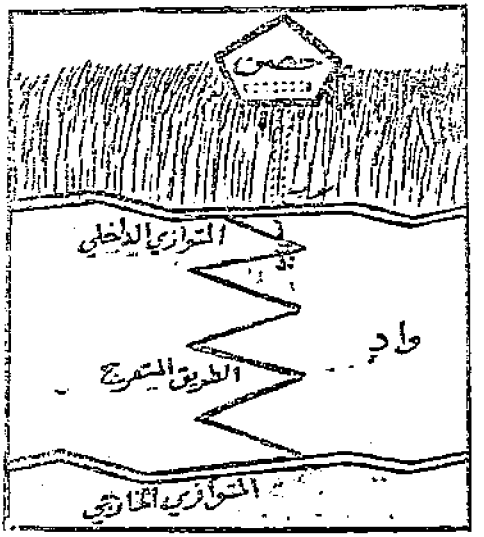

واول ما عملوهُ لبلوغ مأربهم انهم حفروا حول كل تل خندقاً عمقهُ ست اقدام وعرضهُ اثنتا عشرة قدماً او اكثر موازياً خط الحصون وعلى نحو ٣٠٠٠ قدم عنها . وهو المعبر عنهُ في هذا الرسم بالمتوازي الخارجي وحفروا منهُ طريقاً متعرجاً الى حضيض التل كما ترى في الرسم عمقهُ ست اقدام وعرضهُ ثماني اقدام بحيث يستطيع اربعة من الجنود السير فيهِ والهجوم معاً . وكانوا يحفرون هذا الطريق ليلاً وينقلون التراب منهُ ويسقفون الاجزاء الموازية خط الحصون بالواح يضعون عليها تراباً وعشباً فلا يرى الروس ما هم فاعلون . ولكن الروس اكتشفوا هذه الحيلة في بعض الاماكن فكانوا يخرجون من الحصون ويهاجمون اليابانيين ليتلفوا ما حفروهُ . غير ان اليابانيين لم يكلوا ولم يملوا بل واظبوا على الحفر حتى بلغوا حضيض التلال التي بنيت

الحصون عليها وهناك حفروا خندقاً آخر موازياً للخندق الاوّل كما ترى في الرسم والغرض منهُ جمع الجنود للهجوم الاخير . ومن هذا الخندق حفروا سرباً يؤدي الى اسفل الحصن الذي ارادوا مهاجمتهُ ثم حفروا اسراباً على زاوية قائمة منهُ وموازية لاسوار الحصن ووضعوا فيها مقداراً عظيماً من الديناميت واشعلوهُ فانفجر وثغر الحصن فهجموا واستولوا عليهِ . كلُّ ذلك والروس لا يدرون بما يجري حتى يسمعوا صوت الانفجار تحتهم

وكان هذا يجري ومدافع الحصار لا تنقطع عن ارسال قنابلها على المدينة وحصونها . وعدد هذه المدافع ٣٠٠ على ان اعظم المدافع فعلاً مدافع الهاوون وعددها ١٨ وقطر فوهة الواحد منها ١١ بوصة . وثقل قنبلتهِ ٥٠٠ رطل وثمنها ٣٥ جنيهاً وثمن "الدكة" كلها ٨٠ جنيهاً . وكان كلُّ مدفع يطلق مرة كل ثماني دقائق عند اشتداد القتال مدة اربع ساعات وعليهِ فان اطلاق هذه المدافع وحدها كلّف اليابانيين ٤٠ الف جنيه واطلاق المدافع كلها كلفهم مئة الف جنيه كلَّ نوبة

ومدافع الهاوون هذه تستطيع عادة ان توصل قنابلها الى بعد سبعة اميال او ثمانية ولكن لما كان بعدها عن بورت آثر لا يزيد على ٣ اميال وكانت في اماكن لا تُرى منها ولا يرى مطلقوها ما حولها فانهم كانوا يطلقونها صعداً في الهواء على زاوية ٦٠ درجة او اقل فتمر القنابل فوق رؤوس التلال ثم تنقضّ على المدينة كأنها رجم هابطة من السماء

وربَّ قائل يقول انهُ ان كان مطلقو تلك المدافع لا يرون ما حولهم فكيف استطاعوا ان يلحقوا ببورت آثر ما الحقوا من التخريب والتدمير ويتلفوا البوارج الكبيرة التي كانت راسية في ميناها . والجواب على ذلك انهُ كان عندهم خرائط دقيقة رسم فيها جميع ما في بورت آثر من الابنية الكبيرة والاماكن المهمة وعليهِ كان الطوبجية اذا ارادوا تدمير احدها عرفوا مقدار الزاوية التي يجب ان يصوّبوا مدافعهم عليها فيطلقونها ولا يخطئون

هذا من جهة الاهداف الثابتة كالمباني وغيرها تماً على البرّ واما الاهداف المتحركة كالبوارج فان اصابتها لم تكن سهلة لان الروس كانوا ينقلونها من مكان الى مكان متى شاؤوا ولذلك رأى اليابانيون ان لا بدَّ لهم من الاستيلاء على مكان يرون البوارج منهُ ولم يكن هناك غير التلّ المعروف بتلّ ٢٠٣ امتار فاستولوا عليهِ بعد معارك يشيب لها الولدان ونصبوا فيهِ منظاراً يسمّى هيبوسكوب وهو منظار يستطيع الناظر فيهِ ان يرى ما امامهُ من غير ان يُرى فكان المدفعية يطلقون قنابلهم على البوارج والناظرون في الهيبوسكوب يخبرونهم من راس تل ٢٠٣ امتار بالتلفون ما اذا كانت القنابل تصيب البوارج او تقع امامها او خلفها او الى يمينها او شمالها

فيصلح المدفعية خطأهم وما زالوا كذلك حتى اصابت القنابل جميع البوارج . وحاولت البوارج ان تختبئ خلف التلال المعروفة بتلال ذنب التمر وتل الذهب ولكن ذلك لم يدفع عنها مقدورًا ولم يردّ محذورًا

وقد استخدم الروس واليابانيون في هذه الحرب اقصى ما بلغ اليهِ العلم الطبيعي والعلم الرياضي اولئك في تحصين بورت آرثر والدفاع عنها وهؤلاء في حصرها وفتحها وكانت الغلبة لهم لزيادة عددهم وعدّدهم اما الشجاعة والاستبسال فلا يمتاز فيهما فريق على فريق

خاتمة نبوليون واخلاقهُ

كان نبوليون يشكو من هواء منفاهُ ويقول انهُ اورثهُ داء الكبد . وكرر الشكوى هو واتباعهُ مرارًا على امل الخروج من تلك الجزيرة ولكن الداء لم يتمكن منهُ الاَّ قبيل وفاتهِ بشهر وايام ولم يكن الكبد كما توهم بل سرطان المعدة الذي مات بهِ ابوهُ من قبلهِ ولم يُعلم ذلك الاَّ بعد وفاتهِ وفتح رمتهِ . ولا قال الطبيب ان داءهُ عقام الاَّ قبل ان جاءت الساعة ببضعة ايام في السابع والعشرين او الثامن والعشرين من شهر ابريل (نيسان) فأعلم حاكم الجزيرة والحكومة الانكليزية

وقضى نبوليون الايام التسعة الاخيرة من عمرهِ في حالة البحران ونطق بكلمات قليلة منقطعة في اليوم الخامس من شهر مايو (ايار) وهي فرنسا ... الجيش ... مقدمة الجيش . ونهض من فراشهِ وحاول متنولون ردَّهُ اليهِ فدفعهُ بيدهِ والقاهُ على الارض فاستعان بارشمبول وردَّاهُ الى فراشهِ . وفي الساعة السادسة مساء فاضت روحهُ وكانت العواصف تعصف في الجزيرة فعبثت باكواخ الجنود ومزقت الاشجار التي غرسها بيدهِ واقتلعت صفصافة كان يتفيأ ظلَّها. كأن الطبيعة دُهشت من سكون الانسان وقامت تحرك الجماد والنبات

وكان حاكم الجزيرة واقفًا امام البيت ينتظر الخبر ووقع النزاع بينهُ وبين اتباع نبوليون هو يطلب فتح رمتهِ وهم يأبون ذلك عليهِ وهم يطلبون نقلها الى فرنسا وهو يأبى ذلك عليهم . والغلب للقوة الى ان يحين الحين . ففُتحت الرمة ولم تُنقل الى فرنسا حينئذٍ . وطلبوا ان يكتبوا اسمهُ "نبوليون" على تابوتهِ فأبى الحاكم الاَّ ان يكتب معهُ اسم بونابرت وانقضى الخلاف بان تُرك التابوت غفلاً لا اسم عليهِ

وعُرضت الجثة في اليوم التالي وسير بالجنازة بعد اربعة ايام وكان على التابوت سيف

نبوليون ورداؤهُ الذي لبسهُ في واقعة مارنجو(١) . وحملتهُ الجنود الانكليزية الى مركبة يجرها اربعة من جيادهم وساروا بهِ الى بقعة اختارها ليدفن فيها في سفح وادٍ في ظل صفصافتين بجانب عين كان يستقي منها هناك حُفر قبرهُ ووري جسمانهُ ثم أُطلقت المدافع والبنادق اكراماً لهُ

وبعد تسع عشرة سنة رست في مرفإ الجزيرة بارجة فرنسوية معقود لواؤها لبرنس جوانفيل(٢) لتنقل رفاتهُ الى عاصمة مملكتهِ . رضيت بريطانيا بذلك لكي تدفن معهُ آخر اثر من آثار العداء السابق . وقبل ان تعود البارجة الى فرنسا كادت نار العداء تستعر ثانيةً بين الدولتين . وجاء في هذه البارجة غورغو وبرتران وابنهُ الذي كان اول مَن دخل الجزيرة من غير اذن حاكمها على ما سبقت الاشارة اليهِ ومرشان وارشمبول وغيرهم من رجال نبوليون واجتمعوا حول ضريحهِ في الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٠ فنبشوا القبر واخرجوا التابوت فرأوا جثة نبوليون لم تزل على حالها لم يتطرق البلى اليها فعادوا بها الى باريس كأنهم عائدون بالغنائم ولم يُحتفل بدخولهِ تلك العاصمة حيًّا كما احتُفل بدخولهِ اليها ميتًا جلس ملك فرنسا يحيط بهِ الامراء والوزراء والعظماء بما لا مزيد عليهِ من الابهة جلسوا تحت قبة الانقاليد ينتظرون وصول الرفات واذا بالمنادي يقول "الامبراطور" فحال نهض الملك والجمع الذي حولهُ لاستقبال امبراطور فرنسا ولوجثةً بالية واطرقت العيون خشوعًا وفاضت العبرات رهبةً وشجونًا ثم دفنوهُ باحتفال يليق بهِ وبابهة لا تليق بغيرهِ ولم يزل قبرهُ مقصد الزوار من كل البلدان والاقطار

هذه خاتمة نبوليون . اما اخلاقهُ فوصفها من اصعب الصعاب . من رأي لورد روزبري اننا لو عرفنا كل ما بدا منهُ وهو في منفاهُ ولا سيما في الاشهر الاخيرة من عمرهِ لعرفنا اخلاقهُ تمامًا لانهُ تعرّى حينئذٍ من ابهة الملك وغوائل السياسة . ولكن الذين كتبوا عنهُ حينئذٍ كانت افعالهُ لم تزل راسخة في نفوسهم فلم يستطيعوا ان يتجردوا عن الوهم الذين كان متغلبًا عليهم سواء كانوا من محبيهِ والمعجبين بهِ او من مبغضيهِ والمحتقرين لهُ . ومع ذلك فقد كتب بعضهم اشياء كثيرة عنهُ لم تنشر حينئذٍ وهي ترشح الآن من مخابئها رويدًا ورويدًا وفيها حقائق لم يبهرها نور الاعجاب ولا شوّهتها نار الكراهة لهُ الا ان تمحيصها مما يمازجها ليس بالامر السهل . ولا يزال الكتّاب مختلفين في حكمهم على نبوليون بين مادح وقادح واكثرهم على طرفي نقيض اما الفيلسوف الذي يعتقد ان العناية الالهية تدبر امور الناس فيقول ان نبوليون أُرسل

(١) Marengo مدينة في ايطاليا حدثت فيها الواقعة الشهيرة سنة ١٨٠٠

(٢) Prince de Joinville ابن الملك لويس فيليب

الى الدنيا مؤيداً بقوة خارقة العادة لكي يقاص ملوك اوربا و يطهرها من المفاسد وما انقضى ما أُرسل لهُ ذهب كما اتى فهو مثل قيصر واتلاً وتيمور. فان الثورة الفرنسوية نعلت فعل البركان دمَّرت ما دمَّرت وقتلت من قتلت وغطت البلاد بانقاض الرسوم القديمة تعلوها الحمم والرمضاء ونما عليها فطر النوضى والفساد حتى لم يكد يُرَى غيرهُ. قال نبوليون انهُ وجد تاج فرنسا مطروحاً في بالوعة فالتقطهُ ورفعهُ على رأس سيفهِ ولقد كانت حكومتها قرارة اقذار فردمها واحلَّ محلَّها حكومة منتظمة تسير في جادة العدل ما دام مديرها حكيماً حازماً. ولم يكتفِ بذلك بل دوَّخ ممالك اوربا وجاس بلدانها والسيف في يدهِ والارجوان على كتفهِ فاضطرَّ ملوكها ان يصلحوا احكامهم او تثور رعاياهم عليهم

ومهما اختلف الناس في اخلاق نبوليون فكلهم او اكثرهم متفقون على انهُ كان من اعظم القوَّاد ان لم يكن اعظمهم كلهم فقد فاق كل من تقدَّمهُ في سرعة الزحف واغتنام الفرص وجعلهِ رجالهُ يفعلون افعالاً خارقة العادة واحاطتهِ باصغار الامور وكبارها

هذا كان شأنهُ في اوائل امرهِ ثم جعل الخطأ يتطرق الى آرائهِ وافعالهِ كما اعترف بعدئذٍ وكما لا يخفى على احد. ويرى بعض المحققين ان جانباً كبيراً من الفضل الذي ينسب اليهِ انما هو لقوادهِ فيقولون ان الفضل في واقعة مارنجو لدزه[٣] وفي واقعة جينا[٤] لداثو[٥]. ولكن مهما طرح من فضلهِ بقي لهُ شيء كبير يكفي للدلالة على انهُ من نوادر الزمان ونوابغ الدهر في قيادة الجيوش والتنكيل بالاعداء

الاَّ ان شهرتهُ غير مقصورة على ذلك بل كان من اقدر الناس على ادارة مهام البلاد ولقد نبض بيدهِ على كل ازمتها وتصرَّف فيها تصرُّف المغني باوتار عودهِ فانهُ كان يدير نظارة الحربية ونظارة البحرية ونظارة الخارجية. واي شيء اعجب من ادارتهِ لمالية فرنسا فانهُ انفق الوف الملايين على حروبهِ الكثيرة وعلى الابهة والمجد اللذين حفَّ دولتهُ بهما من غير ان يستدين ديناراً واحداً. وكان يعرف كل ما يجري في دواوين الحكومة ويدير كل شيء فيها وكان لهُ ذاكرة منقطعة النظير تعي كل شيء ولا تنسى شيئاً فكان يعرف كل الناس الذين لقيهم ويتذكر كل ما عرفهُ عنهم ولا ينسى امراً من امور الحكومة

قال الوزير دارو Daru وهو من اقدر وزرائهِ خرجت من حضرة الامبراطور يوماً لما كنا

---

(٣) Desaix قائد من قواد نبوليون

(٤) Jena بلد في المانيا حدثت فيها معركتها الشهيرة سنة ١٨٠٦

(٥) Davou المرشال داقو من اشهر قواد نبوليون توفي سنة ١٨٢٣

في ايلو Eylau وانا اقول لا بدَّ لي الآن من قراءة المكاتيب التي اتتنا فقال واي مكاتيب تأتينا ونحن في هذا البر الاقفر كالقبائل الرُحَّل . فقلت لهُ سوف ترى ثم عدت اليه ومعي ستة من الكتَّاب يحملون رزم المكاتيب فنضَّ واحداً منها واذا كاتبهُ يطلب مئة حقنة لمستشفى مايين فقال وهل لتقديم الحقن منوط بالحكومة فقلت نعم وجلالتكم تدفعون ثمنها . فاقام اربع ساعات ينفض كتاباً بعد كتاب ويقرأها وظلَّ كذلك ثمانية ايام متوالية ثم قال الآن فهمت ما هي ادارة الجيش . ولما عاد الى باريس بعد واقعة تلست Tilsit جرى على هذهِ الخطَّة مع كل الوزراء فنشَّ اعمالهم بالدقة في ستة اسابيع ثم فتش اعمال الذين تحتهم وارتبطت اعمال الحكومة بهِ ارتباطاً محكماً كأنهُ الراس يدير حركات البدن كلهِ حتى لما قُطع عنها تولاَّها التشويش والخلل

ثم ان اعظم مآثرهِ القانون المنسوب اليهِ فان الحروب تضع اوزارها والغزوات تتقلَّص ظلالها وكل ما انشأهُ او حاول وضعهُ مضى كما مضى امس الدابر ولكن القانون باقٍ وسيبقى مدى الادهار ناشرًا لواء العدل والانصاف في فرنسا وفي كل البلدان التي جرت عليهِ

وعَمَلُ ما قام بهِ من الاعمال يقتضي قوَّة خارقة العادة جسدًا وعقلاً ولقد كان كذلك في جسدهِ وعقلهِ . بقي في معركة الفنزي خمسة ايام متوالية لم ينزع فيها حذاءهُ ولا اغمض عينيهِ ولما دحر النمسويين نام ستًّا وثلاثين ساعة . وكان يركب من بولندا الى باريس ويجمع اعضاء المجلس ويرئسهم من غير ان يستريح . ومجالسهُ من اشق الاعمال يدوم الواحد منها ثماني ساعات الى عشر . كان مرة في احد هذه المجالس وبقي فيها الى الساعة الثانية بعد نصف الليل واخذت سنة الكرى وزير البحرية فلم يعد يستطيع ان يفتح عينيهِ فصرخ بهِ نبوليون قائلاً شدوا همتكم فان الوقت لم يفُت عن الساعة الثانية وحرامٌ علينا ان نأخذ اجورنا من الامة ولا نشتغل لها بها . وكان عنوان البحث والتدقيق في هذه المجالس فلا ينفضُّ مجلس منها الاَّ واعضاؤهُ قد استناروا بآرائهِ الصائبة

وكان يشتغل ثماني عشرة ساعة من غير انقطاع إما في موضوع واحد او في مواضيع مختلفة ولا يكلُّ ولا يملُّ . ومهما تعب جسمهُ ومهما حدث من الامور التي تهيج غيظهُ فان عقلهُ كان يبقى على مضائهِ وجلائهِ

وكذلك قوتهُ العضلية كانت من القدر الاعظم . سمع مرة الفيلسوف ڤولتهُ يقول ان فرنسا تريد البوربون فرفسهُ برجلهِ فوقع مغمًى عليهِ . واغاظ مرةً من رئيس القضاة فلطمهُ بيدهِ لطمة اطارت صوابهُ . لكن هذه الامور نادرة جدًّا ولم يأتها الاَّ في ساعة غيظ انحلَّ فيها سلطان

الارادة عن القوة الغضبيَّة

ذكر لورد روزبري قانون نبوليون فقال انهُ اعظم اثر خالد ابقاهُ بعدهُ ويتلوهُ في العظمة والخلود المجد والجلال اللذان تردَّت بهما فرنسا في عهدهِ فانها مهما اصابت من نعيم الايام ومهما حلَّ بها من نوائب الدهر تتذكر اثار الملك الفخيم والمجد المؤثَّل اللذين تمتعت بهما في عهدهِ فتنعشها الذكرى وكأنها تنفيأُ الآن ظلَّ ذلك المجد الوارف ولا يزال جوُّها مستنيرًا بنور الزمن الامبراطوري وما تمَّ لها فيهِ من الظفر حين كانت اوربا كلها سندانًا لمطرقتها

ثم التفت الى اعمال نبوليون وكأن الاهة الشعر التي انطقت المتنبي بقولهِ

ضاق الزمان ووجه الارض عن ملكٍ ملءُ الزمانَيْن وملءُ السهل والجبلِ

انطقتهُ بما يماثل ذلك فقال ان نبوليون حشد في عشرين سنة اعمالهُ المجيدة غزواتهِ ونصراتهِ ابتدأ جائعًا نحيفًا فشبع وسمن وصار ملكًا عظيمًا بل ملك الملوك وضاقت بهِ الدنيا فاضاع رشدهُ وامسى لعنةً على بلادهِ وعلى غيرها ولم يعد في طاقتهِ ان يستريح او يريح فصار دأبهُ العبث بالممالك التي حولهُ وهمُّهُ الاكبر عدوَّتهُ الكبرى انكلترا يضاربها على غبر هدًى فاقلق اوربا كلها حتى خارت قواهُ جسدًا وعقلاً وظهرت نتائج ذلك فيهِ وهو في منفاهُ

وحقيقة الحال انهُ لم يكن في عقلهِ ثقل كافٍ لحفظهِ من الانقلاب اذا أُجهد زمانًا طويلاً اي ان قوتهُ كانت محدودة مثل قوة كل انسان فكان من النوادر ولكنهُ لم يكن من الخوارق وكأن جسمهُ وعقلهُ كانا يقولان بلسان الشاعر العربي

لا احمل الاَّ مقدرتي والكأس تفيض اذا طفحتْ

وكذا الميزان اذا حملت اثقالاً صكفتها رجحتْ

ففي اول حكمهِ لما كان فنصلاً كان مثالاً في العدل والانصاف كان حكيمًا مثبتًا دقيق النظر كبير الهمة يشعر بقصورهِ في معرفة قوانين الادارة ولا يخجل من السؤال والاستفهام والاستفادة. وكان ذكي الفؤاد قوي الذاكرة يسأل عن الشيء مرة واحدة ولا يثني فحصَّل في مدة قصيرة معارف كثيرة وتعلَّم كل ما استطاع مشيروهُ ان يعلموهُ اياهُ وللحال ظهر تفوُّقهُ عليهم وعلى كل الذين حولهُ ورأى من نفسهِ انهُ اقدرهم في فنون السياسة كما انهُ اقدرهم في فنون الحرب ولما رسخ ذلك في ذهنهِ ولم يرَ حولهُ الاَّ اناسًا لا يقاسون بهِ سواء كانوا ملوكًا او قوادًا او وزراء كبرت نفسهُ واتسعت مطامعهُ ولم يرَ ما يمنعهُ عن ان يحذو حذو الاسكندر المكدوني ويدوخ ممالك الارض كلها

ولو تمهَّل في حروبهِ وغزواتهِ حتى ترسخ قدمهُ في ما فتحهُ من البلدان والممالك لرسخت دعائم

ملكهِ ولم تنقرض كما تقرضت فقد بنى بناءً عظيماً جاعلاً فرنسا اساساً لهُ وهي تحتمل الهم المباني ولكنها لا تحتمل المحال فانهُ دفن ثلثمئة الف من رجالها تحت ثلوج روسيا سنة ١٨١٢ وفي السنة التالية طلب منها ان تعيدَ لهُ مليونًا وثلثمئة الف من الرجال بعد ان استنزف قوتها بحروبهِ الطويلة وسكانها كلهم لا يزيدون على ثلاثين مليونًا

ولقد ظن ان الممالك والامارات التي ضمها الى فرنسا من المانيا وايطاليا واسبانيا قد التحمت بها حتى صار عدد الرعايا الذين يعتمد عليهم ثمانين مليونًا لا ثلاثين لكنهُ اخطأ في هذا الظن وبعض الظن اثم لان ما اضافهُ الى مملكتهِ آل الى ضعفها لا الى قوتها تخدع نفسهُ واضعف شأنهُ لاسيما وانهُ كان يلعب بحدود الممالك كأنها رقعة الشطرنج فدلَّ بعملهِ هذا على انهُ لم يكن يعتقد ثبوتها. وكيف تثبت على ولائهِ ممالك دوَّخها تدويخًا فاضمر اهاليها العداء لهُ. ومن سياستهِ الخرقاء انهُ ضمَّ فرقًا من الجنود الاسبانية الى جنودهِ حينما كان الاسبانيون يقاتلون كل فرنسوي يستفردونهُ واضاف اليها فرقًا من البروسيين وهو يعلم ان اهالي بروسيا كلهم حاقدون عليهِ متربصون بهِ فرص الدهر. ومزج بها فرقًا من النمسويين والنمسويون الد اعدائهِ

وخلاصة المقال في هذا الباب ان السلطة العظيمة التي بلغها شوشت عقلهُ فعمل اعمالاً لا يخفى خطأها على احد

ثم انهُ كان جنديًّا شبَّ في ميادين القتال والجندي يرى من نفسهِ غرامًا بالحرب ويبلغ منهُ الغرام مبلغًا عظيمًا اذا كان قائدًا متسلطًا على جنودهِ ثم اذا كانت السلطة المطلقة في يدهِ بلغ هذا الغرام اشدَّهُ. والناس يخاطرون بما يمتلكون في المقامرة والمياسرة اذا هاجوا فلا عجب اذا خاطروا بالنفس والنفيس حين ينزلون ميدان القتال وتثور في نفوسهم سورة الغيظ ويبهرهم طلب المعالي وتكرهم خمرة الظفر ويدوسون كراديس القتلى والجرحى كأنها اكداس الحنطة

الاَّ ان هذا التهيج لا بدَّ وان يؤثر في الاعصاب تأثيرًا شديدًا لا تحتملهُ زمانًا طويلاً اذا تكرر عليها مرارًا كثيرة وقد اثَّر في اعصاب نبوليون فصار كالمقامر اذا افل نجم سعدهِ ظن افولهُ احتجابًا قصيرًا لا يلبث ان يزول. وهذا شأن قوَّاد الجيوش بنوع عام لكن وزراء المملكة يردونهم الى صوابهم ويمنعون تورُّطهم في الممالك لانهم لا يكونون منفعلين انفعالهم واما نبوليون فكان القائد والوزير في وقت واحد لا شكيمة تكبحهُ ولا حكمة تسيطر عليهِ. قال لورد روزبري ولا يعلم في اي وقت طرأ هذا الخلل على قواهُ العقلية ولكن لا شبهة في انهُ صار سنة ١٨١٠ غير ما كان عليهِ سنة ١٨٠١ والرجل الذي يقول ان على ممالك اوربا كلها ان تحفظ سجلاتها في مدينة باريس وعلى ملوك الارض كلهم ان يبنوا قصورهم فيها ويحضروا تتويج امبراطرة فرنسا كانهم

من اتباعها ثم يأبى ان يمضي شروط السلم لا يكون عقلهُ خالياً من الدخل . والظاهر ان رجالهُ المقربين منهُ رأوا ذلك وتآمروا مرة على خلعهِ بناءً على انهُ مصاب بمسٍ من الجنون. ولا شبهة في انهُ اضاع التوازن العقلي من سنة ١٨٠٨ فصاعداً ولم يعد يقدّر العواقب ولا يحسب للحدود الادبية والطبيعية حساباً بل صار يجري في اعظم المهام مجرى المقامر والمضارب . ولم يكن لهُ من رجالهِ احد يسترشد بهِ لانهُ يهرهم كلهم وصيرهم اصفاراً فعل ذلك لكي ينجو من مناظرتهم فخسر معاضدتهم ولو مات فجأة قبل سقوطهِ لترك بعدهُ الامناء من رجالهِ عجزةً والاكفاء خونة وهذا وحدهُ دليل قاطع على انهُ لم يحسن السياسة ولم ينشئ سلطنة وطيدة الاركان. ولقد كان يُنتظر من رجل كبير النفس رحب الصدر مثلهُ ان يترفّع عن الغيرة لكنهُ لم يكن كذلك وغيرتهُ هذه ابعدت عنهُ الاكفاء او منعتهم من اظهار كفاءتهم واعتمادهم على انفسهم. وهي التي كانت تحملهُ على توبيخ قوادهِ على كل هفوة تبدو منهم لكي لا يعتدّوا بانفسهم ويتطاولوا الى التمثل بهِ ولذلك لم يكن يمدح الاّ من مات منهم مثل دزه وكلابر. وقد اثرت صرامتهُ فيهم على نوعين اماتت نفوس البعض وغرست الحقد في قلوب البعض الآخر . ومن امثلة صرامتهِ ما روي من انهُ كان يستقبل الزوار مرةً فرأى بينهم الجنرال سان سير وهو من افضل قوادهِ فقال لهُ لقد اتيت من نابلي فقال نعم يا مولاي بعد ان سلّمت قيادة الجيش للجنرال برثيون الذي بعثت بهِ ليخلفني

فقال نبوليون ولا بدّ من انك استأذنت وزير الحربية فاذن لك في المجيء

فقال كلاّ يا مولاي ولكنني اتيت لانهُ لم يبقَ لي عمل في نابلي

فقال نبوليون اذا لم تكن في الطريق اليها من الآن الى ساعتين امرت بك ان ترمى بالرصاص قبل الظهر

وهذا كان شأنهُ مع سائر قوادهِ يمنحهم الرتب والالقاب ولكنهُ لا يجعلهم موضع ثقتهِ لانهُ لم يكن يثق باحد ولم يشأ ان يكون رجالهُ غير آلات في يدهِ . ولم يكن يخشى مناظرتهم لهُ بل كان يخشى تطاولهم اليهِ وانتقادهم لافعالهِ . وكان بين رجالهِ رجلان مقتدران ولما علم انهما صارا بحيث لا يستطيع الاستغناء عنهما اقصاهما عنهُ ثم لما دعت الحاجة اليهما قرّبهما ثانية وهو يعلم انهما يكرهانهِ كما يكرههما

قال لورد روزبري ان الاسباب المتقدمة كافية لسقوط نبوليون ولو ذكر الباحثون في هذا الموضوع اسباباً أُخرى غيرها . ومن رأيهِ ان الاسباب الاخرى التي ذكرها غيرهُ انما هي نتائج نتجت من سوء سياستهِ. وخلاصة ما ذهب اليهِ ان مطامع نبوليون كانت اكبر من الوسائل التي

في يدهِ فضاق بها ذرعًا وسقط في ما سقط فيهِ من الخطاء

واذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

اما آدابهُ الشخصية فلم تكن احط من آداب غيرهِ من ابناء عصرهِ الذين كانوا في مقام مثل مقامهِ . ولعلَّها كانت اسمى من آدابهم فلم يكن يخشى المجاهرة بلزوم التديُّن للامة وبوجوب العفَّة والطهارة العائلية ولو لم يكن يحسب ذلك لازمًا لهُ لزومهُ لغيرهِ . ولقد كان محبًّا لزوجتهِ الاولى برًّا بوالدتهِ وفيًّا لاصدقائهِ ولا سيما في اوائل عهدهِ محبًّا لاخوتهِ غير طامع بجمع المال سريع الغضب قريب الرضا شفوقًا صبورًا . ثم كلَّت عواطفهُ ولم تعد آثار الشفقة تظهر عليهِ الاَّ نادرًا

وكان جنودهُ والفريق الاكبر من قوَّادهِ يحبونهُ في اوائل عهدهِ حبًّا مفرطًا يقرب من العبادة اما الذين بقوا منهم الى اخريات ايامهِ وذاقوا خلهُ مع خمرهِ فتخلَّوا عنهُ او انقلبوا عليهِ حتى تعذَّر ان يوجد العدد الكافي منهم للذهاب معهُ الى جزيرة البا او الى جزيرة القديسة هيلانة . وزوجتهُ الثانية ابنة امبراطور النمسا كانت تقول وهي في بيتهِ انها لا يهنأ لها عيش الاَّ وهي معهُ ولما مات قالت انها لم تكن تحبهُ قط . واللوم في ذلك كلهِ عليهِ لا على الذين تركوهُ . وما احسن ما كتبهُ الجنرال برتران في هذا المعنى وهو في جزيرة القديسة هيلانة قال ان الامبراطور على حالهِ و يستحيل علينا تغيير طبعهِ وطبعهُ هذا هو الذي اقصى اصدقاءهُ وكثَّر اعداءهُ واوصلهُ الى هذه الجزيرة

الاَّ ان هذا الطبع لم يظهر فيهِ الاَّ بعد ان ترفَّع فوق البشر ووضع نفسهُ في مضاف الآلهة اي حينما اختلَّ ميزان عقلهِ

هل كان نبوليون من عظام الرجال . سأل لورد روزبري هذا السؤال واجاب انهُ اذا اريد بالعظمة الجمع بين المزايا العقلية الرائعة والادبية السامية فنبوليون لم يكن عظيماً ولكن اذا اريد بالعظمة المقدرة العقلية والجسدية والتفوُّق في الصفات البشرية فلا شك انهُ كان عظيمًا جدًّا وقد اجتمع فيهِ من ذكاء العقل وعلوّ الهمة ومضاء العزيمة ما لم يفقهُ فيهِ احد او لم يماثلهُ فيهِ احد من الذين يُعرف تاريخ اعمالهم فانهُ لم يقم في كل ازمنة الدهر رجل مثلهُ جمع بين المهارة الحربية والسياسة الادارية بكل دقائقهما وتفاصيلهما حتى قالت مدام هودتو عنهُ انهُ " طوى التاريخ ونشر التصوُّر " وقال لورد ددلي " انهُ اوقع الشك في كل ما جاء عن مجد الماضين ولم يبقِ مجالاً لشهرة الآتين " . وما من اسم مثل اسمهِ يمثل العظمة والابهة كانت قواهُ فوق كل قوى الناس فاحسن استعمالها فارتقى ثم اساء استعمالها فسقط ولم يكن سقوطهُ ممكنًا الاَّ بمثل القوة التي ارتقى بها فهو المحسن الى نفسهِ وهو المسيء اليها انتهى